﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: 60]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ من ذكرِ أسبابِ الافتراءِ إلى التَّنبيه على مآلها يومَ القيامةِ

لَمّا ذكر الله تعالى فَضْلَهُ عَلى النّاس ورحمته بهم، وذكر بعدها أحوال الَّذينَ يتخرَّصونَ على الله الكَذِبَ، فيضيفون إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمهُ عليهم من الأرزاق والأقوات، وتحليلَ من الحرام؛ جاءت هذه الآية لتتوعَّدهم بما سيفعل الله بهم يومَ القيامةِ بسببِ كَذِبهم وفريَتِهم عليه، ولتُذَكِّرَهم بفضله عليهم أنَّه سبحانه لم يَستعجلْهم في العذابِ، ولم يمنعْهم نِعَمَهُ ورزقه[1]، فمناسبةُ الآية لما سَبَقَ هي الانتقالُ من ذكرِ أسبابِ الافتراء إلى التَّنبيه على ما سيكونُ للمفترينَ يوم القيامة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنُّ﴾: الظّاء والنّون أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيينِ مختلفَيْن: يقينٍ وشكٍّ[2]، والظَّنُّ: إدراك الذِّهن الشيء مع ترجيحه، وَقد يكون مع اليقين[3]، وأَصْلُ الظَّنِّ اسمٌ لِما يَحْصُلُ عن أَمارَةٍ، ومتى قَوِيَتْ؛ أَدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[4]، والظَّنّينُ: المُعادي، والظَّنّينُ أيضًا: المُتَّهَمُ، والظِّنَّة: التُّهَمَة، والظُّنونُ: الرجل السَّيِّئ الظَّنِّ بكلِّ أَحَدٍ[5]. وذكر المفسِّرون أنَّ الظَّنَّ في القرآن على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/203، والبقاعي، نظم الدرر: 9/148، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6010.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظن).

(3) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ظن).

(4) الراغب، المفردات، ص: 539.

(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (ظن).

خمسة أوجهٍ: الشَّكُّ، اليقين، التُّهمة، الحُسْبان، الكذب[1] و﴿ظَنُّ﴾ في الآية: التوقُّع والحسبان، والمعنى: أيحسبون، أو يتوقَّعون أنَّ الله لا يؤاخذهم، ولا يعاقبهم على افترائهم يوم القيامة[2].

2) ﴿فَضْلٍ﴾: الفاءُ والضّادُ واللّامُ: أَصلٌ صَحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلك الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخير، والإفضال: الإحسان[3]، وفَضَلَ الشيء فَضْلًا: زاد عن الحاجة، فالفضل: الزيادة حسِّيَّةً أو معنويَّة، وأفْضَلَ عليه: أحسنَ إليه، والفَضْلُ: الإحسانُ ابتداءً بلا علَّة[4]، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزم من يعطي؛ يقال لها: فَضْلٌ[5].

ومعنى ﴿فَضْلٍ﴾ في الآية: موافق للمعنى اللغوي، فالفضلُ من الله تفضُّلٌ من غير إلزام، وفيها معنى الإحسان والمنِّ والعفو والتَّجاوز.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إمهالُ الله المفْتَرينَ في الدُّنيا استدراجٌ والموعدُ القيامة

توعَّد الله المفترين الذين تدخَّلوا في تحريم بَعضِ الحلالِ، وتحليلِ بعضٍ من الحرام من غير دليلٍ أو إذْنٍ من الله سبحانه بسوءِ المَصيرِ على جُرأتِهم وكَذِبهم وافترائهم، فقال عنهم: وما يَظُنُّ هؤلاء الذين يَكْذِبونَ على الله، أنَّ الله فاعِلٌ بهم يوم القيامة بكَذِبهم وعظيم فريتهم عليه؟ أيحسبون أنَّه سيتركُهم بدون عقابٍ؟ كلّا، إنَّ عقابَه لشديدٌ وإنَّ عذابه لعظيم، وتالله إنَّ الله لذو فَضلٍ على خَلْقِه بنِعَمِه الكثيرةِ، ومنها إمهالُه العاصينَ وعدمُ مُعاجلتهم بالعقوبة، وإنظارُهم وتركُهم، وإبقاءُ الرِّزقِ والنِّعمِ في أيديهم، وعدمُ سلبها منهم، ومع كلِّ هذا فإنَّ أَكثَرَ النّاس لا يشكرونَ الله على نعمه وآلائه.

(1) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 426، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/545.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/203، والبغوي، معالم التنزيل: 4/139، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(5) الراغب، المفردات، ص: 639.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَمَا﴾:

عـطفُ حُسبانِ المُـفـتريـن على افترائهـم لبيان قبيح اجتراحهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾، وهو عطفُ جملةٍ على جملةٍ[1]، وليس عطفًا على مقول قول سابق، فلم يأمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقول لهم: ﴿وَمَا ظَنُّ﴾ إنَّما بعد هذا الافتراء في نسبة الحلالِ والحرامِ إلى الله بُهْتانًا وزوْرًا من غير علمٍ أو بيِّنة أوإذنٍ من الله، جاءت هذه الآيةُ تهديدًا ووعيدًا لهم بالعذاب الشديد يوم القيامة، أي: جاء العطف هنا إتمامًا للمعنى العام المشترك الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه، وهو أنَّ كلتا الجملتين حديثٌ عن المفترين على الله بصيغة التهديد، إلا أنَّ الأولى حديثٌ عن أحوالهم وماهية افترائهم، والثانية حديثٌ عن عقوبةِ هذا الافتراء.

الغَرضُ من التعبير بالاستفهام في: ﴿وَمَا﴾:

أتى البيان القرآنيُّ بأداة الاستفهام ﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لغرضين:

إبـهـامُ تفصيلِ الـجـزاءِ يُـظـهـرُ عـظيـمَ الـوعيـدِ وعجيبَ التَّهديدِ

الأوَّل: تَعْظيمُ وَعيدِ مَنْ يفتري على الله[2] ﷻ؛ لِما يتضمَّنه الاستفهام من الإبهام، أي: أبهمَ الأمرَ، فلم يوضِّحْ جزاءَهم على سبيل الوعيد والتَّهديد العظيم يوم يكونُ الجزاءُ بالإحسان والإساءة[3]، وكَأَنَّ معنى هذا الاستفهام: إنَّ الله لذو فضلٍ على النّاس؛ من تأخير العذاب، وفتح باب التوبة، وبيان طريق الهداية، وتمايز الحقِّ من الباطل، ووضوح طريق الخير وطريق الشرِّ وغير ذلك الكثير، فكيف يفترون على الله الكذبَ مع تضافُرِ نعمه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/78.

هذه عليهم؟[1] الآخر: التعجُّبُ من حالهم والتعريضُ بالمشركين؛ ليستفيقوا من غَفلتِهم، ويُحاسِبوا أنفسَهم[2].

سرُّ التَّعبير بالموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المفترونَ في التَّحريمِ والتَّحليل هم المفترون في الظُّنون والأوهام

مقتضى الظاهرِ أن يستمرَّ الكلام عن المفترين الذين يحرِّمون، ويحلِّلون وينسِبون ذلك إلى الله زورًا وافتراءً، وأنْ تكونَ الإشارةُ إليهم بالضَّمير، سواءٌ أكان ضميرَ الخطابِ أم ضميرَ الغيبةِ، فيقالُ مثلًا: (وما ظنُّكُم أو وما ظنُّهم)، لكنَّ النَّصَ القرآني عَدَلَ عن مقتضى الظاهرِ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأمور:

الأول: إيذانٌ بعلَّةِ التَّعجيبِ من ظنِّهم بأَنفسهم يوم القيامة؛ إذ إنَّ الإتيان بالاسم الموصول بالصلة المختصَّة بهم ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ عيَّنَ أنَّهم مفترون، وأنَّ الافتراء قد صار حالهم المختصَّ بهم، بعد بيانِ التَّرديد في الآية السّابقة بين أن يَكونَ الله أذن لهم فيما حَرَّموهُ، وبين أَنْ يكونوا مُفْتَرِينَ عليه قد انْحَصَرَ في القسم الثّاني، وهو كَوْنُهُم مُفْتَرِينَ؛ إذْ لا مساغ لهم في ادِّعاء أَنَّهُ أَذِنَ لهم، فَإذا تَعَيَّنَ أَنَّهم مُفْتَرونَ؛ فقد صار الافتراء حالَهُمُ المختصَّ بهم.

الثاني: الدَّلالة على العموم، فالتعبيرُ بِهِ يشْمَلُ كلَّ مَنْ ثبتت له هذه الصلةُ (الافتراء)، والمعنى: كلُّ من افترى سينالُ جزاءَهُ يومَ القيامةِ.

الثالث: الإيماء بأنَّ سببَ خَسارتِهم وحسرتِهم إنَّما هو الافتراءُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

عبَّرَ القرآنُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار افتراءاتهم وتَجدُّدِها وتكرارها، ولبيان أنَّ افتراءهم هو سلوكٌ قائمٌ بهم لا ينفكُّ عنهم بحال، فهم يكرِّرونَه ليلًا نهارًا، فصارَ الافتراءُ صِفَةً مستمرَّةً فيهم وملازمة

افتراءُ المشركين سلوكٌ قائمٌ وخلقٌ دائمٌ وكذبٌ جاثمٌ

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.

لهم في جميع أحوالهم، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة المضارع يفيدُ حكايةَ حالهم الماضيةِ في الافتراء، ليثيرَ في المُخيِّلةِ صورةً لافتراءاتهم المستمرَّة والمتجدِّدة، بما يُظْهِرُ لهم قُبحَ جريمتهم.

الغَرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

بـالافـتراءِ على الله دون سواه نـالَ المشركين كـامـلَ الـغـمِّ، وواسعُ الذَّمِّ

قدَّمتِ الآية الجارَّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، على مفعولِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ وهو ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ لإفادةِ عِظَمِ الافتراءِ والإجرامِ الذي صَدَرَ من المُشركين، فهو ليسَ افتراءً على أَحَدٍ مِن الخلقِ أو على مَنْ يَسْتَحِقُّ الكلام عليه، بل هو افتراءٌ على الذي خلقهم ورزقهم، ويَعْلَمُ سرَّهم وعلانيتهم ويحاسبهم ويجازيهم على صنيعِهم، وفي هذا التقديم تهديدٌ وتخويفٌ ووعيدٌ وتنبيهٌ؛ لأنَّ المفترى عليه هو اللّه تعالى الذي سيعودون إليه.

كما أنَّ في التَّقديم دلالةَ اختصاصٍ، أي: إنَّ هذا الافتراءَ هو على اللّه سبحانه لا على أحدٍ سواه، وبه نال أولئك كاملَ الغمِّ، واسعَ الذَّمِّ.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْكَذِبَ﴾:

الكذبُ عَلَمٌ على المستقبحِ في العقولِ

لفظُ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ مفعولٌ لفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ويصحُّ أن يكون مفعولًا مطلقًا، واللام فيه لتعريف الجنس، كأنَّه قيل كذبًا، ولكنَّه عُرِّف لتفظيعِ أمرِه، أي: هو الكذبُ المعروفُ عند النّاس المستقبحُ في العقول[1].

بَلاغةُ تعلُّق يوم القيامَة بالظَّنِّ:

الظُّنون الفاسدةُ نتائجُ القلوب البالية والعقول الخالية

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو المصدرُ ﴿ظَنُّ﴾، والمصدرُ مُضافٌ إلى فاعله، وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ولا يَصِحُّ تعلُّق ﴿يَوْمَ﴾ بكلمة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ لفساد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.

المعنى؛ لأَنَّهُ يدلُّ على أنَّهم يفترون يومَ القيامَةِ على اللّه الكذِبَ، وهذا محالٌ، ومعنى الكلام: (وما ظنُّ المفترين يوم القيامة)، لكنَّه أتى بهذا النَّظم لبيانِ نكاته السّابقِ ذِكرُها، من ذكرِ الاسم الموصول وصلته، والجارِّ والمجرورِ، والتَّصريح بالمفترى وهو الكذب.

واعتُرض على تعلُّق ﴿يَوْمَ﴾ بـ ﴿ظَنُّ﴾؛ لأنَّ يومَ القيامةِ لا ظَنَّ فيه، إنَّما فيه اليقينُ، ولذا عدَّ بعض العلماء العاملَ محذوفًا، والتقدير: ما حالهم يوم القيامة؟[1] لكنَّ جمهور المفسِّرين على صحَّة تعلُّق الظَّنِّ بيومِ القيامةِ مع انكشافِ الأَمرِ فيه، ورأَوا في ذلك حِكَمًا:

الأولى: توبيخٌ لهم وتهكُّمٌ بهم على الظَّنِّ الذي اختاروه لأنفسهم سبيلًا بدل أنْ يتحرَّوا مستيقنين[2].

الثاني: لفرطِ دَهشتِهم وحَيرتِهم كما يَحْلِفون، ويَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] مع علمهم بأنَّه لا يَنْفَعُ.

الثالث: يَجوزُ أَنْ يقالَ ههنا: هذا الظَّنُّ منهم ابتداءَ الأمرِ قبل انكشاف الحال، وظهورِ ما هو المآلُ[3].

بلاغةُ ذكرِ لفظِ الكذبِ في: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾:

بيانُ كمالِ قُبحِ المفترين بتسجيلِ افترائِهم عليهم

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذكر لفظة الكذب بعد لفظة الافتراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، والافتراء لا يكون إلّا كذبًا، بل هو أشدُّ الكذب، ولو قال: (وما ظنُّ الذين يفترون على اللّه يوم القيامة)؛ لصحَّ المعنى، لكنَّه ذكر الكذب وهو مفعول ﴿يَفْتَرُونَ﴾ أو مفعول مطلق؛ لإظهار كمال قبحِ ما افتعلوا، وكونه كذبًا في اعتقادهم أيضًا[4]، ولتسجيل شنيعِ أفعالِهم عليهم.

(1) أبو العباس البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 1/133.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/505.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

أبـلـغُ الـتَّـذييـلِ ما اتَّسع لمعاني السّياقِ ووفّى بتراكيب النَّظمِ

النّاظر في قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يرى أنَّ فيه تذييلًا لأكثرَ من موضعٍ:

الأول: تذييلٌ للكلام المفتَتَح بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57]، وفيه قطعٌ لعذرِ المشركين، وتسجيلٌ عليهم بالتمرُّدِ بأنَّ الله تَفَضَّلَ عليهم بالرِّزقِ والموعظةِ والإرشادِ، فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر، وجعلوا رزقهم أنَّهم يكذبون، في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر، فانتفعوا به في الدُّنيا والآخرة[1].

الثاني: تذييلٌ لبداية الآية نفسِها: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ مع أنَّ الآية فيها تهديدٌ لكنَّ المقصودَ: إنَّ الله لذو فضلٍ على النّاس حيث أنعمَ عليهم بالعقلِ والوحي والهدايةِ وتأخيرِ العذابِ وفتح باب التوبة، فكيف يفترون عليه الكذبَ مع توافر نعمه عليهم[2].

الثالثُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعودُ إلى الآية التي قبلُ، وهي قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ وهذا يعني: أنَّ الله لذو فضل عظيم على النّاس في كلِّ ما خلقه لهم من الرزق، وكلِّ ما شرعه لهم من الدّين، ومنه أنَّه جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرِّزق الإباحة، وجعل حقَّ التحريم والتحليل له وحده ﷻ لكيلا يتحكَّمَ فيهم أمثالهم من عبادِه، وهو لم يحرِّم عليهم إلا ما هو ضارٌّ بهم، ولهذا أباح لهم ما حرَّمه عليهم إذا اضطرّوا إليه، وكان تركُه أضرَّ من تناولِه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.
(2) أبو بكر الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 188.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/337.

الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعودُ على يوم القيامة، وأنَّ الله من فضلِه على النّاس أنْ يُؤخِّر القيامةَ لعلَّ النّاس يرعوون، وإلّا لفاجَأَهُم سبحانه من أوَّل تكذيبٍ، وهذا يبيِّن أنَّ الله تعالى يُمهل الخلق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان، ومن أمثلة ذلك أنَّ المؤمنين برسول الله لم يأتوا جميعًا مرَّةً واحدة في وقت واحد، إنَّما على فتراتٍ زمنيَّةٍ واسعةٍ، ولا ضيرَ أنْ نقول: إنَّ التذييلَ يصلحُ للمواضع كلِّها، فخطابُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ناسبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وجرمُ المفترين وكذبُهم لا يُبْعِدُهُم عن فضل الله وعطائِه، وكذلكَ من فضل الله أنَّ الحلالَ والحرامَ بيدِه، وأنَّه أخَّرَ يومَ القيامة ليتفضَّل سبحانه بالتوبة على العاصين، وليزدادَ الذين آمنوا إيمانًا.

فضلُ الله كثيرٌ عظيمٌ ثابتٌ لجميعِ النّاس لا ينفكُّ عن أحدٍ منْهُم

بلاغة اجتماع المؤكِّداتِ:

أكَّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمؤكِّدات عدَّة:

الأول: البدء بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي يفيد التأكيد، والذي تبدأ به العرب كلامها؛ إذا أَرادتْ أَنْ تقولَ كلاماً مُؤَكَّدًا.

الثاني: الجملةُ الاسميَّة؛ لأنَّها تَدُلُّ على الثباتِ وقوَّةِ الحُكْمِ وبَقائِه، ولِأَنَّ الخِطابَ بالجملة الاسميَّة وحدَها آكدُ من الخطاب بالجملة الفعليَّة.

الثالثُ: دخولُ اللام على الخبر، وهي تفيد تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، ولهذا زحلقوها في باب ﴿إِنَّ﴾ عن صدر الجملة؛ كراهية ابتداء الكلام بالمُؤَكِّدَين، ولأَنَّها تدلُّ بجهة التأكيد، و﴿إِنَّ﴾ تدلُّ بجهتي العمل والتأكيد، والدّالُّ بجهتين مقدَّمٌ على الدالِّ بجهة، وإذا جاءتْ مع ﴿إِنَّ﴾ كانتْ بمنزلة تكرار الجملة ثلاثَ مراتٍ؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾ أفادتِ التكريرَ مرَّتين، فإذا دخلتِ اللامُ؛ صارت ثلاثًا[1]كلُّ هذه المؤكِّداتِ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/408.

مجتمعةً مع ما تضمَّنته مفردات الآية من تفخيم الفضل وتعظيمه واستيعابه وشموله أفادتِ المبالغةَ في تأكيدِ فضلِ الله على النّاس كلِّ النّاس لا ينفكُّ عن أحدٍ منْهُم، فهو كثيرٌ عظيمٌ ثابت لا ينقطع.

الغرض من وضع المظهر في موضع المضمر:

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ مظهرًا، لا مضمرًا، فلم يقلْ سبحانه: (إنّه لذو فضل عظيم)؛ وذلك للأمور الآتية:

في مواضع الإفضال يفضل لفظ الجلالة بإظهارِه والتَّحلّي بسماعِه

الأول: الزيادة في الإيضاح بأنَّهُ سبحانه لا يشاركه مع هذا الاسم أحدٌ، فانتسبَ الفضلُ إليه وحدَهُ دونَ سواهُ.

الثاني: التَّعريض بقبح افترائهم على الله المشرِّع صاحب الفضل العظيم، فإنَّهم مع فضله العظيم عليهم افتروا عليه الكذب، وبالمقابل مع افترائهم الكذب عليه لم يقطعْ فضلَه عنهم.

الثالث: تربية النفوس على مهابة الله، بذِكر الاسم الأعظم الجامع لكلِّ صفات الجلال والجمال، والكمال، كما أنَّ السياق هو سياقُ مَهابةٍ وتعظيم، وانتصارٍ للحقِّ وحُججه.

الرّابع: لتجري هذه الجملة مجرى الأمثال السّائرة، والكلمات الجامعة، ولو أضمر؛ لما كان في حسن الإظهارِ، وهذا توجيهٌ تداوليٌّ لا في أصل النَّظم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿عَلَى﴾:

معنى حرف الجر ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الاستعلاءُ، وقد أفادَ عظمةَ صاحب الفضل، وتمكُّنَ فضله سبحانه في النّاس واستيعابَه وشمولَه.

غرض تنكير ﴿فَضْلٍ﴾:

نكَّر البيان الإلهيُّ لفظَ ﴿فَضْلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو

فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في سياق الامتنان بعد إقامة الحجَّة؛ لإفادةِ معنى التكثير والتفخيم والتعظيم[1] لشأنِ هذا الفضل الذي "لا يكتنه كنهه"[2]، ولإفادة معنى التعظيم لحِلْم المتفضِّل؛ ففضلُه كثير وعظيمٌ، ومنه إمهال الكافرين ليتوبوا رغم افتراءاتهم.

فـضـلٌ عـظـيـمٌ لا يُكتنه كُنْهه ولا يـوقـفُ على حقيقةِ حسنه

معنى (أل) في: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

(ألْ) التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي: على النّاس جميعًا حيث أنعم عليهم بالعقل المميَّز بين الحقِّ والباطلِ، والحسَنِ والقبيحِ، ورحِمهم بإنزال الكتبِ، وإرسالِ الرسلِ، وبيَّن لهم الأسرارَ التي لا تستقلُّ العقولُ في إدراكها، وأرشدهم إلى ما يُهمُّهم من أمر المعاشِ والمعاد[3]، وبما ساقَ إلى النّاس كلِّهم مِن الرِّزق، كافرهم ومؤمنهم، وبما أخَّر عنهم العذابَ، من غير أنْ تكون منهم سابقةُ صنعٍ يستوجبون به ذلك[4].

كـمـالُ الفضلِ وتـمـامُ النِّعمة أنْ يـكـونَ عـامًّا لـلـمـؤمـنـين والكافرين

فائدةُ الاستدراك:

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ حرف استدراكٍ، يأتي للاستدراكِ ممّا تَضَمَّنَهُ الكلام الذي قبلَه، فهي تَنسِبُ لما بَعدها حكمًا مخالفًا لحكم ما قبلَها، فلا بدَّ من أنْ يتقدَّمَها كلامٌ مخالفٌ لِما بعدَها أو مناقضٌ له[5]، وفائدتها في الآية الدَّلالة على قلَّة الشاكرين[6].

فضلُ الله تعالى قد يُلاقى بحميدِ الشكرِ أو بكثيرِ الكفرِ

والتقدير هنا: إنَّ اللّه لذو فضلٍ كثيرٍ على النّاس بنِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فيجب عليهم أنْ يشكروا تَفَضُّلَهُ وإحسانَهُ، لكنَّ أكثرَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/28.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.
(4) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 8/90.
(5) نحو: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: 102].
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/564.

غيرُ شاكرين فضلَه تعالى كما ينبغي؛ أمّا الكفارُ؛ فلم يشكروا أصلًا، وأمّا المؤمنون؛ فلم يبلغوا غايةَ شُكْرِه، أو أنَّ المقصود بأكثر النّاس هم الكافرون ليتناسب مع قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13][1]، ويؤيّده أنَّ المقامَ مقامُ ذمٍّ للكافرين، وتمييزِ المؤمنين الذين فرحوا بفضل الله ورحمته عليهم.

غرضُ ذكرِ الأكثريَّة:

عدلُ الله حاضرٌ في جميعِ خلقِه وفي بديعِ نظمه

أطنب البيان الإلهي بلفظ الأكثريَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولكنهم) رغم أنَّه أخصرُ لفظًا؛ إنصافًا للقلَّة الشاكرة منهم، ومديحًا لهم على استقامتهم وقوَّة إيمانهم، فهم علموا الحقَّ، واتَّبعوه، وصدَّقوا به، ووقفوا إلى جانب الرسول ﷺ يؤيِّدونه ويفدون دعوته بالنَّفس والمال، ولم يحرِّموا، أو يحلِّلوا من عندهم، وكانوا ملازمين لشكر الله تعالى في السرّاء والضرّاء، والعسر واليسر[2]ولو جاء التعبير القرآني بقوله: (ولكنَّهم) لشملَ كلَّ النّاس، وعليه يدخلُ في وصفِ عدم الشكر المؤمنُ وغيرُ المؤمن، والصابرُ مع النَّبيِّ ﷺ وغيرُ الصابرِ، وليس هذا من روح القرآن الذي يقومُ على جبر الخواطر، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

وقد ورد أنَّ المؤمن يشكر الله تعالى على نعمه عليه وعلى غيره من خلقه، كما جاء عن قتادة وهو أحد التابعين في تفسير ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أنَّه قال: (إنَّ المؤمن لَيشكر نِعَم الله عليه وعلى خلقِه)[3].

توجيهُ المتشابه اللفظي:

الإظهارُ والإضمارُ يتناسبُ مع السياق في المعنى وفي تكرارِ اللفظ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بإضمار (النّاس) في حين أظهرها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/553.
(2) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 1/559.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 2/459.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]؛ وذلك لأنَّه في سورة غافر أظهر لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وكرَّره في قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ [غافر: 59]، ومقصوده تحريك الخلق للاعتبار والتَّذكير بما نصبَ سبحانه من الدلائل والآيات؛ فاقتضى ذلك تكرار الظاهر، فناسبَ إظهاره في هذه الآية [61] للمشاكلة في الألفاظ.

أمّا في يونس؛ فقد أضمر لفظة (النّاس)، وكرَّر ضمائرَها قبل ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فناسب إضمارها لِما ذكرناه من المشاكلة[1]، ولأنَّه لم يتقدَّم تكريرٌ للفظة (النّاس) يُطلب بمناسبة؛ فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الإتيان بالضمير؛ ليحصل به ربطُ الكلام، فجاء كلٌّ من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله؛ مراعاةً لتناسب الكلام[2].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ عبَّر القرآن عن عدم شكر أكثر النّاس بصيغة المضارع؛ إشارةً إلى تجدُّد النعم، فمقتضى تجدُّدها تجدُّدُ شكرها، لكن لمّا كان الصّادرُ عنهم نقيضَ مقتضى الشُّكر: وهو الكفر؛ فُهِمَ أنَّ كُفرَ النِّعمة هو المتجدِّد، فعُبِّر عنه بنفي الشُّكر تنبيهًا على وجود النِّعم، فاكتسى النَّظم اختزالًا بديعًا، ثمَّ إنَّ الشُّكرَ إذا ظهر منهم؛ فإنَّه لا يستمرُّ، وأنَّ الدائم منهم هو عدم الشكر وتكرُّر الجحود وتجدُّده آنًا بعد آنٍ[3]؛ فهم

نفي الشُّكر يومئ إلى النِّعم العديدة التي تُمنحُ للنُّفوسِ العنيدة

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 323.
(2) أبو جعفر الغرناطي، ملاك التأويل: 1/246.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.

يخبطون خَبْطَ عشواءَ، ولا يتَّبعون رسله ولا كتبه، ويفعلون ما يغضبهُ سبحانه ولا يصرفون مشاعرهم إلى ما خُلقتْ له، وكان ينبغي أنْ يشكروا اللّه على نعمهِ الواصلة إليهم منه سبحانه في كلِّ وقتٍ من الأوقات وطرفةٍ من الطَّرفات[1]وجاءت صيغة الجمع مناسبةً لحالهم؛ فقد اجتمع أكثر النّاس على عدم الشكر، وتواطؤوا على ذلك، أو سكتوا راضينَ به غيرَ منكرِين، ولا ناصحين بعضهم بعضًا بشكر اللّه تعالى[2].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به لـ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾:

عـدمُ شكرِهم لـنـعـمِ الـلـه الكثيرة دليلٌ على عِظَمِ انحرافهم وعِـظَـمِ حلمِ المنعمِ سبحانه

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لثلاثة أغراض:

الأولُ: إفادةُ العموم، أيْ: لا يشكرون كلَّ ما يجبُ أنْ يُشكرَ اللّه تعالى عليه؛ لأنَّهُ لمّا كانَ فضلُ اللّه كبيرًا وكثيرًا ومتنوعًا؛ كان لزامًا أنْ يكونَ الشكر كثيرًا ومتنوِّعًا، فحَذَفَ المفعولَ ليعمَّ الشكرُ كلَّ النعمِ، وكلَّ أفضالِ اللّه تعالى، وهذا أبلغُ من ذكر المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص كفرهم ببعض النِّعم.

الثاني: مراعاةُ الفاصلةِ في السورة بما يحقِّق إحكامَ اللَّفظِ، أي: التطريب وراحة النَّفس بنغمها؛ إذ خُتمت معظمها بالواو والنون، والواو من الحروفِ المدّيَّة الهوائية، وبما يحقِّقُ إحكامَ المعنى وإكمالَه؛ ففرحُهم برحمةِ اللّه وفضلِه يستلزمُ أنْ يكونوا من الشّاكرين، فارتبطَ اللفظُ مع المعنى.

الثالثُ: الإيجازُ؛ لشهرتِه وظهورِه، فهو المستحقُّ للشكر فعليًّا في هذا الكونِ؛ إذ هو المنعمُ الحقيقي سبحانه الذي ليس قبله منعمٌ، وهو مصدرُ كلِّ فضلٍ وكلِّ خيرٍ وكلِّ عَطاءٍ.

(1) محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 6/86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/149.

سرُّ التَّعبيرِ بالشُّكرِ: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾:

الشُّكر ثمرةُ الإيمانِ وهو المقصودُ بهذا السّياق

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظةِ الشُّكر ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ دونَ لفظة الإيمان، فلم يقل: (لا يؤمنون)؛ مناسبةً لسياق الكلام؛ إذ إنَّه سبحانه بعد أنْ ذَكَرَ نِعَمَهُ وآلاءَهُ على خلقه، وبيَّنَ أنَّهُ سبحانه ذو فضلٍ على النّاس؛ ناسبَ هذا أن يأتي بالشكر، والشُّكر من نتائج الإيمان، فذِكْرُه يتضمَّنُ ذكرَ الإيمان، لهذا حينَ يقرأ أحدنا قوله تعالى: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَعْلَمُ أنَّ الأمرَ الذي هو بصدده في مقاييس العقلِ والفِطْرةِ السليمة يستحقُّ الشكرَ[1]، وكذلكَ في ذكرِ الشُّكر تحريضٌ ودعوةٌ إلى أَنْ يَشْكُرَ الخلقُ الخالقَ على نِعَمِهِ وفضله، فإنْ شكروا حقَّ الشُّكْرِ؛ استحقّوا مزيدًا من فضله وعطائه، وبالشكر تدومُ، وتكثرُ النِّعَمُ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/135، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6953.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»